

أن يحجب حينما يمثل أمام شخص غريب بل يسقط في يديه ويعتريه الحجل ، فيحمر وجهه ، ويسيل العرق على جبينه ، وبشعر بالحرج الشديد ، ولا يحير جواباً ... فيتهم بالغباء والبلادة حتى أيقن في قرارة نفسه أنه بليد حقاً وأنه أقل من غيره من الأطفال ذكاءً ونباهة .. وكان يحدث نفسه في هذا كثيراً ويقول : « كيف أستطيع أن أكون ذكياً كغيري ؟ ... ماذا أفعل ؟ ... » فلا يجد حلاً يرضيه ويخلصه من هذه الحيرة ... وكانت السخریات الحادة التي يلذعه بها المدرسون أو الطلاب ، وتعييره بهذا النقص يثير قلقه ويضاعف همومه ، ولكنه كان يكبت ذلك بين جنبه ويتحمل في سبيل هذا السكبت الأمرين ... فيلجأ إلى العزلة أحياناً ، وينغمر في بحر التكفير ، ويساعده خياله الواسع ويزيد في متاعبه ، ويحسم له مشاكله حتى تضغط عليه الأفكار ، ويحس بالضيق يكاد يكتم أنفاسه فلا يجد علاجاً ومتنفساً إلا أن ينخرط في بكاء مريع ..

استيقظ محسن صباح السبت — أيقظته أمه — قبل أن تشرق الشمس ... وتوضأ وصلى كالعادة ، ثم أخذ « الفوطه » ليشتري بها خبز الإفطار ، ثم ساق أمامه الماعزة ليسلمها إلى الراعي ويدعها في حراسته طول النهار ... وكان محسن يؤدي هذه المهمة برضى واستعداد . فإنه يمضى في أثنائها — على الأقل بلحظات بسيطة من الحرية تخلصه من جو البيت الخانق البغيض ... وتوجه بعد ذلك إلى الحجاز ولكن الزحام — في هذا اليوم على الأخص — كان شديداً لسبب لا يعرفه ... وكان أشد ما يضايقه هو أن يقف الوقت الطويل في سبيل ما عهد إليه بشرائه من أرغفة ... وكان لا يستطيع أن يزاحم الناس كغيره من السكابر لصغر سنه ، وكان أيضاً لا يستطيع أن يصيح — كما يصيح — غيره لينبه الحجاز إلى وجوده ... وهبه فعل ذلك ، فإن صوته الدقيق الخافت لا يمكن أن يصل إلى مسامع الحجاز بين هذه الأصوات العالية ... فكان مضطراً والحال هذه أن يقف

كان محسن يبدو أكبر من سنه التي لم تجاوز العاشرة بعد ... ويشهد بذلك هذه الملامح الحزينة المفكرة التي يطامك بها وجهه ، وهذه النظرة النائية الهائمة التي تتمثل في عينيه الواسعتين ... وكان أسمر اللون إلا أن هذه السمرة مشربة باصفرار قليل يبدو واضحاً — على الأخص — في وجهه الذابل ... وكان دقيق التقاطيع ، نحيل الجسم ، ضئيل الجرم ... ولعل هذا راجع للمعاملة القاسية التي يهضه بها والده ، والتي لم يقتصر أثرها على صحته ونموه ، وإنما تعداه إلى ما هو أخطر ... إلى نفسية الطفل ... فقد عوده والده على الطاعة العمياء ، وعلى ألا يسأله في أمر أو يناقشه في شيء ... فكلمة صغيرة محتج بها المسكين ، أو يحاول الدفاع بها عن ذنب يتهمة باقترافه أو خطأ يلصقه به ، كافية لأن تثير ثائرة الرجل على هذا العقوق الموهوم فيضربه ويقسو في هذا الضرب ... وصار محسن يمقت البيت ، ويمقت على الأخص تلك الساعة الثقيلة التي يعود بها والده من عمله ... فيحاول دائماً أن يتوارى عن نظره في إحدى الحجرات ، فإن مجرد رؤية وجهه الصارم ، ونظرته كافية لأن تنسكاً جراحه ، وتبعث في ذكرياته الصور البائسة التي تعذبه بين حين وحين كلما خلى إلى نفسه — وما أكثر ما يخلو إليها — فيخشى في قرارته أن تتكرر هذه الصور — فيسرى الاضطراب في كيانه ، ويعكر الخوف مزاجه ... وقد تطور هذا الخوف إلى حالة عصبية شاذة فصار يهيج لأتفه الأسباب ، وتضطرب أعصابه حينما يعهد إليه بمهمة ... فضعفت ثقته بنفسه ، ولازمه الاعتقاد بأنه لا يمكن أن يكون له رأى يعتقد به ، أو أنه يستطيع أن يفعل شيئاً له قيمة ... وجعل يتهرب من المسؤولية لخوفه الشديد من الفشل ... فهو لا يجرؤ على أن يقف أمام الطلاب يوم الخميس ليردد ما حفظه من محفوظات كما يفعل غيره من اخوانه الأطفال ... وهو لا يستطيع أن يركز تفكيره ، ويجب إجابة سريعة على أسئلة المدرس . وإنما تضطرب أفكاره في رأسه وتتعر الكلمات في فمه ... وهو لا يستطيع

الوقت في اللعب ... وأين من يستطيع أن يشاركه في ذلك في هذه الساعة المبكرة ؟ ...

وكأنها بذلك قد صبت الماء على الزيت المشتعل ... فبالرغم من أن كلامها كان مقولاً إلا أن هذا الرد قد أثار حنقه وأشعل غضبه ، فإنه لا يحب أن يناقشه أحد أو يقنعه بأنه مخطئ ... فإنه لا صبر له على هذا ... فالتفت إليها بكليته هذه المرة وصاح بها ...

— أنت التي تفسدين علينا هذا الطفل بتدليله وتبوير أخطائه ... فلولاك لما بقي إلى هذه الساعة ... وما ذنبه هو إذاً ...

— صه ... أصمقي يا حمقاء ... إنك تريدان أن تدافعي عن أخطائه ... ولكني سأعرف كيف أعاقبه وكيف أعلمه الأدب ... سترين ...

وساد الجو صمت رهيب لحظة من الزمان لم يقطعه إلا صوته الجهورى وهو يصيح ...

— يا منثور ... هاتى الشاى ... (ومنور تصغير وتحقير في نفس الوقت لاسم منيرة — ابنته — إن كنت لا تعلم) ،

ودخلت (منور) الحجرة وهي تحمل في يدها إبريق الشاى تكاد تتعثر في مشيتها من فرط السرعة والاضطراب — وهي فتاة في الثالثة عشرة من العمر — ووضعت الأبريق أمام والدها يدين مرتعشتين وخرجت ... وراح (الديكتاتور) يلتهم الافطار التهاماً كأنه لم يذق الطعام منذ أيام ... وفرغ من الأكل في لحظات وخرج من المنزل ... فتنفست الأم الصعداء ، وشعر الابن كأنه كابوساً قد زال عن صدره ... وبادرت الأم ابنها ...

— هيا ... هيا أفطر سريعاً ... فقد تأخرت في الذهاب عن المدرسة ... وابتلع المسكين إفطاره ابتلاعاً دون أن يتلذذ به أو يحس له طعماً ! وتناول كراساته وخرج مسرعاً من البيت ...

ما كاد محسن يصل المدرسة حتى وصل إلى سمعه صليل الجرس ... ولم يكذ يدلف إلى دهليز المدرسة حتى فوجيء بوالده وهو يهم بالخروج منها ... فسمّر محسن في مكانه واتسعت حدقته من هول المفاجأة ، وامتلاء قلبه بالرعب ولكن والده — لدهشته — لم يعمل له شيئاً ، واكتفى بأن حدّجه بنظرة هائلة ذات معنى ، ومضى إلى سبيله ...

صامتاً وينتظر حتى تخف الزحمة وينصرف الناس ، فيلاحظه الحجاز ويمن عليه بما يريده من خبز ... وحينما رجع محسن إلى البيت كانت الشمس قد ارتفعت في الفضاء ، وغمرت الكائنات بأنوارها ... وأحسّ محسن أنه قد قضى وقتاً طويلاً عند الحجاز ... وأنه تأخر ... وأدرك أن عاصفة تنتظره في البيت ... ولم يشأ أن يتأخر أكثر من هذا التأخير ، فحث السير وكأنه يسعى إلى حنقه ... ودخل البيت والعرق يسيل على وجهه بالرغم من برودة الجو ... ولم يحب ظنه فقد وجد والده ينتظر أمام المائدة وقد نفذ صبره ، وبدت على وجهه أمارات الغضب الشديد ، وتوقدت عيناه الواسعتان ، وخيل إلى محسن أن الشر يكاد يتطاير منهما ، فتملكه الذعر ، وأسرعت دقات قلبه ، فتقدم متردداً حذراً ، ولم يكذ ينتبه أبوه إلى وجوده حتى حدّجه بنظرة شزرة مزلزلة ، وبادره بلهجة مدوية يشع فيها الغضب ...

— يا أحمق ... أين كنت منذ الصباح ! ...

— كنت عند الحجاز ... لقد كان الزحام شديداً (قالها بصوت مرتعش وجَل خافت) ...

— كنت عند الحجاز !! هه ... (وهز رأسه) ... ساعة كاملة عند الحجاز ؟ !! وكذاب أيضاً ... أصدقني أين ذهبت ؟ وإلا هسّمت رأسك ...

فأراد محسن أن يؤكد لوالده أنه كان حقاً عند الحجاز ، وأن الزحام كان شديداً جداً ، وأن الذنب ذنب الحجاز الذى أخره وليس ذنبه هو ... ولكن الخوف عقد لسانه فلم يجر جواباً ، وطأطأ رأسه وبدأ كالذنب حقاً ... والتفت أبوه إلى أمه وكانت جالسة حينئذ ترقب دون أن تنبس ببنت شفة ، فإنها تعرف جيداً أن كلمة بسيطة تخرج من فيها قد تثير مشكلة وإزعاجاً للجميع لا داعى لها في هذا الصباح الباكر ... وقال لها ...

— أرايت ؟ ! إنه لا يريد أن يصدقني الجواب فيقول لى أين ذهب . إنه لا يريد أن يقول لى مثلاً أنه قضى الوقت باللعب مع رفقاء السوء ... يظهر أن وسيلة الضرب لا تنفع مع هذا الولد العاق البليد ...

ولم تستطع الأم في هذه المرة السكوت ... فأجابته بصوتها الخافت الحذر وهي تدارى غضبه والاصطدام معه ... ربما كان كلامه صحيحاً ... فقد سمعت بأن الحجاز الثانى في هذا الحى قد قفل دكانه وانتقل إلى مكان آخر ... فقد يكون هذا سبب الازدحام ... ولكنى لا أعتقد أنه قضى

وانتبه محسن أخيراً إلى نفسه فعاد إليه تفكيره ، وأسرع إلى فناء المدرسة ، وكان الطلاب قد اصطفوا بترتيب ونظام لإلقاء نشيد الصباح كالمعتاد ، فأسرع ووقف في مكانه مع إخوانه الأطفال ، ولم يكدم مدير المدرسة يظهر في وسط الحوش وهو يحمل في يده (خيزراته) الطويلة حتى سكنت الأصوات ، وانقطعت الضوضاء ، وانتظمت الصفوف ، وهدأت الحركة ، وانجذبت إليه كل الأنظار ورفع المدير عصاه مشيراً إلى الطلبة بأن يستعدوا . ثم تكلم بصوته القوي الواضح النبرات ...

— يا الله مع بعض ... نشيد يا بلادي يا بلادي ...
واحد ... اثنين ... ثلاثة ...

وارتفعت أصوات الطلاب جميعاً تنشد هذا النشيد بحماس بالغ ، وبصوت منسجم . والمدير واقف في الفناء يهز رأسه بين حين وحين استحساناً وقد بدأ على وجهه الرضا ، وبان في عينيه الاعتزاز بأن هذا الحباس الرائع الذي يسرى في كيان طلابه إنما هو من فضله وثمرته جهوده . وأحس بالغبطة وهو ينصت إلى هذه الأصوات المللعة المدوية ... عليها تصل إلى مسامع المارة في الشارع فتطربهم وتفرحهم بأن ينسبوا أولادهم إلى مدرسته ، ويدعوهم تحت رعاية هذا المدير القدير ... ولم ينتبه وهو منغم في فيض هذه المشاعر اللذيذة إلا حيناً انتهى الطلاب من إلقاء النشيد وساد الساحة صمت شامل ... وهم بأن يصرف الطلاب إلى فصولهم ولكن خاطراً مرةً بذنه فجأة فتوقف وصاح بأعلى صوته :

— محسن عبد الكريم ؟ ..

وتهاشم الأطفال الذين يحيطون بمحسن فيما بينهم ، وقال له بعضهم :

— اذهب إن المدير يريدك !!! ..

ولم يدر كيف استطاعت أقدامه أن تحمله إلى وسط الفناء عند المدير ، وشعر بأن العيون كلها منصبة عليه ، خفض رأسه خجلاً وراح ينظر إلى الأرض ، وضايقه ذلك أشد المضايقه ، وود لو أنه تلاشى أو ذاب في تلك اللحظة ليتخلص من هذه النظرات المركزة عليه ... وتحدث المدير أخيراً :

« أيها الطلاب . لقد طالما أمرتكم بطاعة الوالدين ، وبالامتنال لأوامرهما ... ولطالما حذرتكم مغبة العقوق والعصيان ، فإن الله قد أعد جهنم للعاقين والعاصين فيضلهم

فيها وبئس المصير ... ولكن يظهر أن هذه النصائح التي نهتكم إليها لا تعجب هذا الولد الشقي — وأشار إلى محسن — ولا تنال منه أذناً صاغية ... فإنه لا يطيع والده الذي يتجشم المتاعب في سبيل تربيته والاتفاق على مأكله وملبسه وتعليمه ... فقد أخبرني قبل مدة قليلة أنه يخرج من البيت دون أن يستشير ، ويلعب في الشارع مع أولاد السوء ... ويبطئ كلما بعثه في مهمة ... لقد أساء هذا الولد العاق الذي لا يستحق منا إلا الاحتقار — إلى كآساء إلى مدرستى قبل أن يسيء إلى نفسه ... فأنا أريد منكم جميعاً أن تتمسكوا بأهداب الأخلاق الفاضلة ، والصفات الجميلة ، وألا تعصوا أمراً أو تهملوا واجباً ، وإلا فالعقاب الصارم ... كما سأعاقب الآن هذا الولد البليد العاق على يرتدع ... غير لهجته فجأة وهو يصيح : « يا ولد ... الفلقة ... هات الفلقة حالا ... » وفي هذه اللحظة شق طالبان الصفوف ، واتجها بسرعة عجيبة إلى حجرة نائية في الطرف الآخر من المدرسة ، وعادا في لمح البصر وبين أيديهما « الفلقة » وأمرها المدير صائحاً :

— ضعا رجلى هذا الشقي في « الفلقة » ..

فأجلسه الطالبان بغضاضة على الأرض ، وأدخل رجليه في الفلقة قسراً ، وأمسك كل واحد منهما بأحد طرفيها ، ثم أخذوا يديرانها على رجليه حتى أحس بجبل الفلقة يضغط عليهما ضغطاً قاسياً ويكاد يحزهما حزاً ... وهنا أهوى المدير على رجلى هذا البائس بعصاه الخيزران فشعر الصغير بوخزهما المؤلم يحرق رجليه ، ويكاد يدميها . فراح يبكي بكاء خافتاً متقطعاً وهو يتلوى على الأرض ذات اليمين وذات الشمال والعصاة لا تكف ولا ترحم حتى مرت لحظة حسبها محسن من أطول الفترات ... وحينما شعر المدير بأنه قد أدى المهمة كما يجب ، أمر الطالبين بأن يقوداه إلى حجرة العقاب المظلمة ، فإن الدرس محرم عليه في هذا اليوم ... واتجه إليها محسن وهو يجرح رجليه جرحاً ، والدموع تنحدر على خديه مدراراً وقبع في ركن من أركانها ، وراح يبكي في صمت ولوعة ، وينشج نشيجاً متقطعاً تكاد تقطع له نياط قلبه حتى احمرت عيناه وذبلتا ، وشعر بأنه لا يستطيع أن يبكي أكثر مما يبكي ، فراح ينزل اللعنات على هذا الأب الغشوم ... فهو السبب في كل هذه المصائب التي حلت على رأسه ... يا الله ما أشد ظلمه !! ألم يكفه أن ضربه بالأمس أمام الأطفال الآخرين فجرح كبريائه ، وبدا في عيون غيره من الأطفال

قلبه فزعاً وهلعاً وضايقته هذه النظرات المتطفلة ، فأعطاهم ظهره وهو يتمنى في سره لو أن الله خالق له — الساعة — أنياباً وأظافر لينشها في أجسام هؤلاء المتطفلين الذين لا يحسون بما يحسه ، ولا يدركون مبالغ بؤسه وعذابه ... ودخل في روع بعض الطلاب أنه لا يلقى لهم بالا ، ولا يكثر لحديثهم .. وشجع صمته البعض الآخر فصاح به طالب نزق ...

— أكان الضرب مؤلماً يا محسن ؟ ...

— فجراً هذا الكلام طالباً آخر فصاح أيضاً ...

— ألا تزال تحس بألم الضرب ؟

ورد (النزق)

— وهل تورمت أصابع رجلك ؟ ...

وهنا سمعوا صليل الجرس فتفرقوا إلى فصولهم ، وخلفوه

وحده يجتر آلامه في سجنه الرهيب ، وجوه الكتيب ...

(يتبع) على زكريا الأنصاري

الدنيا مخلوقة من الهواء

هذا ما قال به فيلسوف يوناني يدعى أناكسيمين سنة ٥٨٥ قبل الميلاد . . أى أنه قد مضى عليه للآن نحو ألفين وخمسمائة سنة تقريباً .

ويرر هذا الفيلسوف رأيه هذا بقوله . إن الهواء إذا سخن صار ناراً ، وإذا برد صار سحاباً ثم مطراً ثم ثلجاً ثم صخراً والهواء هو عنصر الحياة في كل شيء . وهل يوجد فرق بين الحى واليت إلا الهواء المنتشر في أجزاء جسم الأول ، والمعدوم من جسم الثانى .

ومن آرائه أن هذه الأرض التى نعيش عليها مستطيلة مبسوطة ، وأنه يمكن — على ذلك — لو اتجهنا سيرا إلى أى اتجاه أن نصل إلى آخرها .

« إلى آخرها ؟ » وهنا تتحطم النظريات ، وتتهشم الآراء ... أيمكن ذلك حقاً ؟ أن نصل إلى آخر الدنيا . . أيمكن أن نشرف على نهايتها ؟ . .

هذه أسئلة قاتلة . . قد صارت الفكر قديماً . . وقد آن الأوان لتصارع الفكر حديثاً .

مهينا ذليلاً ؟ . وأنه حرمة من اللعب فى يوم عطلة الوحيد ؟ . ألا يقدر كم يسببه له هذا الاحتقار الذى يرميه به المدير والمدرسون والطلاب جميعاً من ألم وعذاب ؟! . وشعر بأنه مظلوم مهضوم الحق . وأن القهر يكاد يحنق أنفاسه ، وبأنه فى حاجة إلى من يواسيه ، ويخفف عنه كربه العظيم ... وتمنى لو كان الآن (عزيز) صديقه الحبيب جالساً بجانبه ليثبه شكواه ، ويفضى إليه بشجونه عله يستطيع أن يخفف عن صدره عبء هذا الهم الجاثم . وراح يتمنى لنفسه فى وحدته « أليس من خلاص يارب من هذه الحال ؟! إلى متى وأنا فى هذا العذاب ؟! إلى متى وأنا صابر على الظلم ؟! آه ... ليتنى كنت كبير السن ، إذن لعرفت كيف أتقم لنفسى وأخذ حقى ... ولكنى ضعيف ... ضعيف ... لا حول لى ولا قوة ... ليس من حل إذن إلا أن أفر من هذا الأب العاشم ... نعم ... سأذهب بعيداً عنه ... ولن أرى وجهه الكريه مرة أخرى . لن أعود إلى المنزل بعد هذا اليوم مهما كانت النتائج . فأنا لا أستطيع أن أقاسى أكثر مما قاسيت ، وأن أتحمّل أكثر مما تحمّلت » وفيما هو يدير هذه المعانى فى ذهنه ويعيد ، لعل الجرس خرج الطلاب من فصولهم ، وتجمهر المتطفلون منهم — وهم كثير — حول النافذة الصغيرة الوحيدة لحجرة العقاب ... وراحوا ينظرون إلى محسن بعيونهم الناقدة ، ووجدوا فى حالته التعمسة مادة خصبة للتعليق والضحك غير آبهين لما هو فيه من مهانة وعذاب ، وراح ينظر بعضهم إلى بعض وهم يشيرون إليه بين وقت وآخر يتهامون حيناً وترفع أصواتهم حيناً آخر :

— أعتقد أنه سوف يقضى طول اليوم فى هذه الحجرة المظلمة ؟! ...

— هذا مؤكد !!

— ياله من غبي ... عاق ... حسناً فعلوا به ...

— أنظر !! إن عينيه محمرتين من البكاء ..

— لاشك أنه يتعب أباه كثيراً ... وإلا لما عرض

لهذا العقاب ...

— سيظهر له (خروف مسلسل) حيناً ينتشر الظلام .

— لماذا ؟ ... أهذه الحجرة (مسكونة) ؟! ...

— طبعاً يا أخى ... ألم تسمع بذلك ؟! ...

— مسكين ... يا لسوء المصير ...

وأثارت هذه التعليقات السخيفة المهينة حنقه كما ملأت